هذا الإشكال فقالوا : (فى) هنا بمعنى (على) . لكن هذا تفسير لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان القرآنىّ ، ويجب أن نتفق أولاً على معنى التصليب : وهو أن تأتى بالمصلوب عليه وهو الخشب أو الحديد مثلاً ، ثم تأتى بالشخص المراد صلْبه ، وتربطه فى هذا القائم رباطاً قوياً ، ثم تشدّ عليه بقوة .

ولك أنْ تُجرِّب هذه المسألة ، فتربط مثلاً عود كبريت على إصبعك ، ثم تشدُّ عليه الرباط بقوة ، وسوف تجد أن العود يدخل فى اللحم ، ساعتها تقول : العود فى إصبعك ، لا على إصبعك .

إذن قوله تعالى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١) ﴾ [طه] (فى) هنا على معناها الأصلى للدلالة على المبالغة فى الصَّلْب تصليباً قوياً ، بحيث يدخل المصلوب فى المصلوب فيه ، كأنه ليس عليه ، بل داخل فيه .

ثم يقول : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾ [طه] أينا . المراد فرعون وموسى ، أو فرعون ورب موسى الذى أرسله ﴿ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) ﴾ [طه] فجمع فى العذاب شدته من حيث الكيفية ، ودوامه وبقاءه فى الزمن . ولم يذكر القرآن شيئاً عن تهديد فرعون ، أفعله أم لا ؟ والأقرب أنه نفّذ ما هدد به .

وكان من المفروض فى تهديد فرعون أن يأخذ من قلوب السَّحرة ويُرهبهم ، فيحاولون على الأقل الاعتذار عمَّا حدث ، لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل قالوا ما أهاجه أكثر :

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) ﴾

الإيثار : تفضيل شيء على شيء في مجال متساوٍ تقول : آثرتُ فلاناً على فلان . وهما في منزلة واحدة ، أو أن معك شيئاً ليس معك غيره ، ثم جاءك فقير فآثرْتَهُ على نفسك .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ﴿٩﴾﴾ [الحشر]

فقولهم : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا .. ﴿٧٢﴾﴾ [طه] لأنه قال ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه] أنا أمْ موسى ؟ فالمعركة في نظره مع موسى ، فأرادوا أنْ يُواجهوه بهذه الحقيقة التي اتضحتْ لهم جميعاً ، وهي أن المعركة ليستْ مع موسى ، بل مع آيات الله البينات التي أُرسل بها موسى ، ولن نُفضِّلك على آيات الله التي جاءتْنا واضحة بيِّنة .

ولما رأى السحرة معجزة العصا كانوا هم أكثر القوم إيماناً ، وقد وَضُح عُمْق إيمانهم لما قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه] ولم يقولوا آمنا بموسى وهارون ، إذن : فإيمانهم صحيح صادق من أول وَهْلة .

وقد تعرضنا لهذه المسألة في قصة سليمان مع ملكة سبأ ، حين قالت : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل] فأنا وهو مسلمان لله ، ولم تقل : أسلمت لسليمان ، فهناك رب أعلى ، الجميع مُسلِّم له

إذن : فقوْل السَّحَرة لفرعون : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا .. ﴿٧٢﴾﴾ [طه] تعبير دقيق وواعٍ وحكيم ، لا تلحظ فيه ذاتيةَ موسى ، إنما تلحظُ البينة التي جاء بها موسى من الله .

لذلك يقــول تعــالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَـفَـرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَـابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ(١) حَتَّىٰ تَأْتِيَهُـمُ الْبَيِّنَةُ ① ﴾ [البينة] ثم يُبين عند مَنْ جاءت البينة : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② ﴾ [البينة]

فالارتقــاء من الرسول إلى البـينة إلى مَنْ أعطى له البينة ، فــهذه مراحل ثلاث .

والبينات : هى الأمور الواضحة التى تحسم كل جدَلٍ حولها ، فلا تقبل الجدل والمهاترات ؛ لأن حجتها جليّة واضحة .

وقــولهم : ﴿ وَالَّذِى فَطَرَنَا .. ⑦② ﴾ [طه] أى : ولن نُؤثرك أيضــاً على الله الذى فطــرنا ، أو تكون ﴿ وَالَّذِى فَطَرَنَا .. ⑦② ﴾ [طه] قــسَم على ما يقولون ، كما تقــول : لن أفعل كذا والذى خلقك ، فأنت تُقسم ألاَّ تفعل هذا الشىء .

وهذه حيـثية عـدم الرجوع فيـما قالــوه وهو الإيمان بربٍّ هارون وموسى .

ثم لم يَفُتْهم الإشارة إلى مسالـة التهديدات الفرعونية : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. ⑦① ﴾ [طه]

لذلك يقولون : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ .. ⑦② ﴾ [طه] أى : نفِّذ ما حكمتَ بـه من تقطيع الأيدى والأرجـل ، أو اقْضِ مـا أنت قــاض من أمور أخــرى ، وافعل مــا تريد فلم تعُدْ تخـيفنا هذه التـهديدات ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ⑦② ﴾ [طه]

---

(١) انفكَّ : انفصل وزال وفارق ما كـان عليه . قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ .. ① ﴾ [البينة] أى : زائلين ومنفصلين عما هم فيه حتى جاءتهم البينة . [القاموس القويم ٢/ ٨٧] .

فأنت إنسان يمكن أن تموتَ فى أى وقت ، فما تقضى إلا مُدَّة حياتك ، وربما يأتى من بعدك مَنْ هو أفضل منك فلا يدّعى ما ادَّعيْته من الألوهية .

وهَبْ أن مَنْ جاء بعدك كان على شاكلتك ، فحياته أيضاً منتهية ، وحتى لو ظَلَّ ما سننته للناس من ادعاء الألوهية إلى يوم القيامة ، وامتدّ طغيان غيرك من بعدك ، فالمسألة ستنتهى ، ولو حتى بقيام الساعة .

كما سبق أن قُلْنا : إن نعيم الدنيا مهما بلغ فيتهدده أمران : إما أن تفوته أو يفوتك ، أما نعيم الآخرة فنعيم بَاقٍ دائم ، لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾

فما دُمْنا رجعنا من الإيمان بالبشر إلى الإيمان بخالق البشر ، فهذا رُشْدٌ فى تفكيرنا لا يصح أنْ تلومنَا عليه ، ثم أوضحوا حيثية إيمانهم ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه] فالإيمان بالله سينفعنا ، وسيغفر لنا الخطايا وهى كثيرة ، وسيغفر لنا ما أكرهتنا عليه من مسألة السحر ، فقد صنعوا السحر مُكْرهين ، ومارسوه مُجْبرين ، فهو عمل لا يوافق طبيعتهم ولا تكوينهم ولا فطرتهم .

وما أكثر ما يُكْره الناس على أمور لا يرضونها ، وينفذون أوامر وهم غير مقتنعين بها ، خاصة فى عصور الطُّغاة والجبّارين ، وقد سمعنا كثيراً عن السَّجانين فى المعتقلات ، فكان بعضهم تأتيه الأوامر

بتعذيب فلان ، فماذا يفعل وهو يعلم أنه برىء مظلوم ، ولا يطاوعه قلبه فى تعذيبه ، فكان يدخل على المسجون ويقول له : اصرخ بأعلى صوتك ، ويُمثِّل أنه يضربه .

ثم يقولون : ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)﴾ [طه] فأنت ستزول ، بل دنياك كلها ستزول بمَنْ جاء بعدك من الطُّغَاة ، ولن يبقى إلا الله ، وهو سبحانه يُمتِّع كل خَلْقه بالأسباب فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلن يعيشوا بالأسباب . إنما بالمسبب عز وجل دون أسباب .

لذلك إذا خطر الشىء ببالك تجده بين يديك ، وهذا نعيم الآخرة ، ولن تصل إليه حضارات الدنيا مهما بلغتْ من التطور .

لذلك فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا .. (٢٤)﴾[يونس] . فمهما ظَنَّ البشر أنهم قادرون على كل شىء فى دُنْياهم فهم ضُعفاء لا يستطيعون الحفاظ على ما توصَّلوا إليه .

إذن : اجعل الله ـ تبارك وتعالى ـ فى بالك دائماً يكُنْ لك عوضاً عن كل فائت ، واستح أنْ يطلع عليك وأنت تعصيه . وقد ورد فى الحديث القدسى : «إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟!»[1] .

ولما سُئل أحد العارفين : فيم أفنيتَ عمرك ؟ قال : فى أربعة أشياء : علمتُ أنِّى لا أخلو من نظر الله تعالى طَرْفة عَيْن ، فاستحييتُ أن أعصيه ، وعلمتُ أن لي رزْقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعتُ به ، وعلمتُ أن علىَّ ديناً لا يُؤدِّيه عنِّى غيرى فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لى أجَلاً يبادرنى فبادرته .

---

(١) بالبحث فى كتب الحديث تبين عدم ثبوت حديث بهذا اللفظ ، وإنما تمت حملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء فى كتاب ، حلية الأولياء ، (١٤٢/٨) قال رجل لوهيب بن الورد قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك ، وجاء فى كتاب جامع العلوم والحكم (٣٦/١) قال بعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك

وقد شرح أحد العارفين هذه الأربع ، فقال : اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه .

وهكذا جمعتْ هذه الأقوالُ الثمانية الدينَ كله .

ثم يُقدِّم السحرة الذين أعلنوا إيمانهم حيثيات هذا الإيمان ، فقالوا :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾

قوله : ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه] يعني مُجرِمًا عمل الجريمة ، والجريمة أنْ تكسر قانونًا من قوانين الحق ـ عز وجل ـ كما يفعل البشر في قوانينهم ، فيضعون عقوبة لمَنْ يخرج عن هذه القوانين ، لكن ينبغي أن تُعيَّن هذه الجريمة وتُعلَن على الناس ، فإذا ما وقع أحد في الجريمة فقد أعذر من أنذر .

إذن : لا يمكن أن تعاقب إلا بجريمة ، ولا توجد جريمة إلا بنص .

وقوله : (يَأْتِ) أي : هو الذي سيأتي رغم إجرامه ، ورغم ما ينتظره من العذاب . لكن لماذا خاطبوه بلفظ الإجرام ؟ لأنه قال : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [طه] ولم يفعلوا أكثر من أنْ قالوا كلمة الحق ، فأيُّنا إذنْ المجرم ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ [طه]

لأن الموت سيُريحهم من العذاب ؛ لذلك يتمنَّوْنَ الموت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. (٧٧) ﴾ [الزخرف]
فيأتى رده ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف]

وفَرْقٌ بين عذاب وموت ، فالموت إنهاء للحياة ، وليس بعد الموت إيلام ، أمَّا العذاب فلا ينشأ إلا مع الحياة ؛ لأنه إيلام حَيٍّ .

لذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لما عرض لهذه المسألة فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد وأن سليمان قال : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. (٢١) ﴾ [النمل] فالعذاب شىء ، والذبح شىء آخر ؛ لأنه إنهاء للحياة الحاسة .

ومعنى : ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) ﴾ [طه] أن هناك مرحلة وحلقة بين الموت والحياة ، حيث لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياةً سالمة من العذاب ، فبقاؤهم فى جهنم فى هذه المرحلة ، التى لا هى موت ولا هى حياة .

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) ﴾

فكأنهم كانوا يشيرون بقولهم : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا .. (٧٤) ﴾ [طه] إلى فرعون ، والآن يشيرون إلى أنفسهم ، وما سلكوه من طريق الإيمان ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ .. (٧٥) ﴾ [طه]

فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن الإيمان هو الينبوع الوجدانى الذى تصدر عنه الحركات النزوعية على وَفْق المنهج الذى آمنت به ، وإلا فما فائدة أنْ تؤمنَ بشىء ، ولا تعمل له ، وكثيراً ما جمع القرآن بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه] الدرجات أى : درجات الجنة ، فالجنة درجات ، بعضها فوق بعض ، أما النار فدركات ، بعضها تحت بعض .

وقد جعل الحق - تبارك وتعالى - الجنة درجات ؛ لأن أهلها متفاوتون فى الأعمال[1] ، كما أنهم متفاوتون حتى فى العمل الواحد ؛ لأن مناط الإخلاص فى العمل متفاوت .

لذلك جاء فى الأثر : « الناس على خطر إلا العالمون ، والعالمون على خطر إلا العاملون ، والعاملون على خطر إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » .

والعُلاَ : جمع عُليا . فما الدرجات العُلاَ ؟

﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

عدن : أى إقامة . منْ عَدَنَ فى المكان : أقام فيه ، فالمراد جنات أُعِدَّتْ لإقامتك ، وفرْقَ بين أنْ تُعِد المكان للإقامة وأنْ تُعِدَّ مكاناً

(١) أخرج ابن المبارك فى الزهد (ص ٣٣) (رقم ٩٩) وأبو نعيم فى الحلية (٤\٢٤٧)عن عون بن عبد الله قال : إن الله ليدخل خلقاً الجنة فيعطيهم حتى يملوا ، وفوقهم ناس فى (الدرجات العلي) فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون : يا ربنا إخواننا كنا معهم فبم فضلتهم علينا ؟ فيقال : هيهات ، إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون ، ويظمأون حين تروون ، ويقومون حين تنامون ، ويشخصون حين تخفضون .

لعابر ، كما أن المكان يختلف إعداده وترفه حَسْب المعدّ وإمكاناته ، فالإنسان العادى يُعد مكاناً غير الذى يعده عظيم من العظماء ، فما بالك إذنْ بمكان أعدّه لك ربك ـ عز وجل ـ بقدراته وإمكاناته ؟

وقوله : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٦) ﴾ [طه]

نعلم أن الماء من أهم مقومات الحياة الدنيا ، فبه تنبت الأرض النبات ، وفيه تذوب العناصر الغذائية ، وبدونه لا تقوم لنا حياة على وجه الأرض . والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يُنزل مطراً من السماء قد لا ينتفع بالمطر مَنْ نزل عليه المطر ، فربما نزل على جبل مثلاً ، فالنيل الذى نحيا على مائه يأتى من أين ؟ من الحبشة وغيرها .

لذلك جعل الخالق ـ عز وجل ـ كلمة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٧٦) ﴾ [طه] رمزاً للخضرة وللنضارة وللنماء وللحياة السعيدة الهانئة ، حتى الإنسان وإنْ لم يكُنْ محتاجاً للطعام بأنْ كان شبعان مثلاً ، يجد لذة فى النظر إلى الطبيعة الخضراء ، وما فيها من زرع وورود وزهور ، فليس الزرع للأكل فقط ، بل للنظر أيضاً ، وإنْ كنتَ تأكل فى اليوم ثلاث مرات ، والأكل غذاء للجسم ، فأنت تتمتع بالمنظر الجميل وتُسَرُّ به كلما نظرتَ إليه ، والنظر متعة للروح ، وسرور للنفس .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنا : لا تقصروا انتفاعكم بنعم الله على ما تملكون ، فتقول مثلاً : لا آكل هذه الفاكهة لأنها ليست ملْكى ، لأن هناك متعةً أخرى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] فقبل أن تأكل انظر ، فالنظر متعة ، وغذاء مستمر .

---

(١) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . والوصف منه يانع ، أى : ناضج . قال تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ .. (٩٩) ﴾ [الأنعام] أى : نضجه واختلاف طعمه بعد النضج . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

فقوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٧٦) ﴾ [طه] لأن ظاهرة جريان الأنهار فى الدنيا وسيلة للخُضْرة والخصْب والإيناع ، و ﴿ مِن تَحْتِهَا .. (٧٦) ﴾ [طه] أى : أن الماء ذاتىّ فيها ، ونابع منها ، ليس جارياً إليك من مكان آخر ، ربما يُمنَع عنك أو تُحرم منه .

لذلك يقول تعالى فى آية أخرى: ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة] فتحتها أنهار جارية ، لكن مصدرها ومنبعها من مكان آخر .

ونسب الجريان إلى النهر ، لا إلى الماء للمبالغة . فالنهر هو المجرى الذى يجرى فيه الماء .

ثم يقول تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٧٦) ﴾ [طه] وهذا هو التأمين الحقّ للنعيم ؛ لأن آفة النعم أنْ تزولَ ، إمّا بأن تفوتها أنت أو تفوتك هى ، أما نعيم الجنة فقد سلَّمه الله تعالى من هذه الآفة ، فهو خالد بَاقٍ ، لا يزول ولا يُزال عنه .

﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾ [طه] الزكاة : تُطلَق على الطهارة وعلى النماء ، فالطهارة : أن يكون الشىء فى ذاته طاهراً ، والنماء : أنْ توجَد فيه خصوصية نمو فيزيد عمَّا تراه أنت عليه .

كما ترى مثلاً الورد الصناعى والورد الطبيعى فى البستان ، وفيه المائية والنضارة والرائحة الطيبة والألوان المختلفة والنمو ، وكلها صفات ذاتية فى الوردة ، على خلاف الورد الصناعى فهو جامد على حالة واحدة .

وهذا هو الفرق بين صَنْعة البشر وصَنْعة الخالق للبشر ؛ لذلك كانت صنعة الله أخلد وأبقى ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وتلحظ أنه لم يَضنَّ عليك بصفة الخَلْق ؛ لأنك استعملتَ الأسباب وأعملتَ الفكر ، فكان لك شيء مَن الخلق ، لكن ربَّك أحسنُ الخالقين ؛ لأنك خلقتَ من باطن خلْقته ، خلقتَ من موجود ، وهو سبحانه يخلق مَن عدم ، خلقتَ شيئاً جامداً لا حياة فيه ، وخلق سبحانه شيئاً حياً نامياً ، يتكاثر بذاته .

ومن هنا سُمِّى المال الذى تُخرجه للفقراء زكاةً ؛ لأنه يُطهِّر الباقى ويُنمِّيه . ومن العجائب أن الله تعالى سَمَّى ما يخرج من المال زكاة ونماءً ، وسَمَّى زيادة الربا مَحْقاً .

فمعنى : ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه] أى : تطهَّر من المعاصى ، ثم نَمَّى نفسه ، ومعنى التنمية هنا ارتقاءات المؤمن فى درجات الوصول للحق ، فهو مؤمن بداية ، لكن يزيد إيمانه وينمو ويرتقى يوماً بعد يوم ، وكلما ازداد إيمانه ازداد قُرْبه من ربه ، وازدادت فيوضات الله عليه . والطهارة للأشياء سابقة على تنميتها ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة .

إذن : زكَّى نفسه : طهَّرها أولاً ، ثم يُنمِّيها ثانياً ، كمَنْ يريد التجارة ، فعليه أولاً أن يأتى برأس المال الطاهر من حلال ثم يُنمِّيه ، لكن لا تأتى برأس المال مُدنَّساً ثم تُنمِّيه بما فيه من دَنَس .

وكلما نَمَّى الإنسانُ إيمانَهُ ارتقى فى درجاته ، فكانت له الدرجات العُلاَ فى الآخرة .

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا[2] لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾

---

(١) سَرَى يَسْرِى : سار ليلاً .

(٢) قال محمد بن كعب : يبساً : أى يابساً ليس فيه ماء ولا طين [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥/٥٩٠ . وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم] .

كان هذا الوحى لموسى ـ عليه السلام ـ بعد أن انتهت المعركة ، وانتصر فيها معسكر الإيمان ، أما فرعون فقد خسر سلاحاً من أهمِّ أسلحته وجانباً كبيراً من سَطْوته وجبروته .

وهنا جمع موسى بنى إسرائيل ، وهم بقايا ذرية آل يعقوب ليذهب بهم إلى أرض الميعاد ، وسرعان ما أعدَّ فرعون جيشه وجمع جموعه ، وسار خلفهم يتبعهم إلى ساحل البحر ، فإذا بموسى وقومه مُحَاصرين : البحر من أمامهم ، وفرعون بجيشه من خلفهم ، وليس لهم مَخْرج من هذا المأزق .

هذا حُكْم القضايا البشرية المنعزلة عن ربِّ البشر ، أما فى نظر المؤمن فلها حَلٌّ ؛ لأن قضاياه ليست بمعزل عن ربه وخالقه ؛ لأنه مؤمن حين تصيبه مصيبة ، أو يمسه مكروه ينظر فإذا ربُّه يرعاه ، فيلجأ إليه ، ويرتاح فى كَنَفه .

لذلك يقولون : لا كَرْبَ وأنت ربٌّ ، وما دام لى رب ألجأ إليه فليست هناك معضلة ، المعضلة فيمن ليس له رَبٌّ يلجأ إليه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ لو أن إنساناً معه فى جيبه جنيه ، فسقط منه فى الطريق ، فإذا لم يكُنْ عنده غيره يحزن أمّا إنْ كان لديه مال آخر فسوف يجد فيه عِوَضاً عمَّا ضاع منه ، هذا الرصيد الذى تحتفظ به هو إيمانك بالله .

وهنا جاء الأمر من الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ ليُخرجه وقومه من هذا المأزق : ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا .. (٧٧)﴾ [طه]

أسْرِ : من الإسراء ليلاً . أى : السير ؛ لأنه أستر للسائر .

وقوله ﴿ بِعِبَادِى .. (٧٧) ﴾ [طه] كلمة « عبد » تُجمع على « عبيد » و « عباد » والفَرْق بينهما أن كل مَنْ فى الكون عبيد لله تعالى ؛ لأنهم وإنْ كانوا مختارين فى أشياء ، فهم مقهورون فى أشياء أخرى ، فالذى تعوَّد باختياره على مخالفة منهج الله ، وله دُرْبة على ذلك ، فله قَهْريات مثل المرض أو الموت .

أما العباد فهم الصَّفْوة التى اختارت مراد الله على مرادها ، واختياره على اختيارها ، فإنْ خيَّرهم : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف] خرجوا عن اختيارهم لاختيار ربهم .

لذلك نسبهم الله إليه فقال : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. (٤٢) ﴾ [الحجر] وقال عنهم : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا .. (٦٣) ﴾ [الفرقان]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا .. (٧٧) ﴾ [طه] : أى : يابساً جافاً وسط الماء .

والضرب : إيقاع شىء من ضارب بآلة على مضروب ، ومنه ضَرب العملة أى : سكُّها وختمها ، فبعد أنْ كان قطعةَ معدن أصبح عملة متداولة .

وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق البحر وانحسر الماء عن طريق جافّ صالح للمشى بالأقدام ، وهذه مسألة لا يتصورها قانون البشر ؛ لذلك يُطمئنه ربه ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكًا .. (٧٧) ﴾ [طه] أى : من فرعون أنْ يُدرِكَكَ ﴿ وَلاَ تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾ [طه] أى : غرقاً من البحر ؛ لأن الطريق مضروب أى : مُعَد ومُمهَّد وصالح لهذه المهمة .

وهذه معجزة أخرى لعصا موسى التى ألقاها ، فصارت حية

تسعى . وضرب بها البحر فانفلق فصار ما تحت العصا طريقاً يابساً ، وما حولها جبالاً ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ[1] الْعَظِيمِ (٦٣)﴾ [الشعراء] وهى التى ضرب بها الحجر فانبجس[2] منه الماء .

والسياق هنا لم يذكر شيئاً عن الحوار الذى دار بين موسى وقومه حينما وقعوا فى هذه الضائقة ، لكن جاء فى لقطة أخرى من القصة حيث قال تعالى : ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

وبتعدد اللقطات فى القرآن تكتمل الصورة العامة للقصة ، وليس فى ذلك تكرار كما يتوهَّم البعض .

فقبل أنْ يُوحى إليه : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا .. (٧٧)﴾ [طه] قال القوم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء] فقال (كَلاَّ) . لكن كيف يقولها قَوْلة الواثق وما يخافون منه محتمل أنْ يقع بعد لحظة ؟

نقول : لأنه لم يقل (كَلاَّ) من عنده ، لم يَقُلْها بقانون البشر ، إنما بقانون خالق البشر ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء] فأنا لا أغالطكم ، ولسْتُ بمعزل عن السماء وتوجيه ربى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾

---

(١) الطود : الجبل الثابت العالى . [القاموس القويم ١/٤٠٨] .

(٢) البجس : انشقاق فى قربة أو حجر أو أرض ينبع منه الماء . وانبجس الماء : تفجَّر . قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. (١٦٠)﴾ [الأعراف] .

قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه] غشيهم يعنى : غطَّاهم الماء، وقد أبهم هذا الحدث للدلالة على فظاعته وهَوْله ، وأنه فوق الحَصْر والوصف ، كأن تقول فى الأمر الذى لا تقدر على تفصيله : حصل ما حصل .

وفى لقطة أخرى لهذه الحادثة يُبيِّن الحق - تبارك وتعالى - أن موسى - عليه السلام - بعد أن عبر بقومه آمناً أراد باجتهاده وترجيحاته الإيمانية أن يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته فلا يتمكن فرعون من اللحاق به ، لكن توجيهات ربه لها شأن آخر ، فأوحى الله إليه : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤)﴾ [الدخان]

أى : اتركه كما هو لا تُعِدْه إلى استطراق سيولته ، فكما أنجيتك بالماء سأتلف عدوك بالماء ، فسبحان مَنْ يُنجِى ويُهلك بالشىء الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)﴾

وسبق أن قال فرعون لقومه . ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر]

فأين سبيل الرشاد الذى تحدَّث عنه فرعون بعدَ أنْ أطبق الله عليهم البحر ؟ لقد سُقْتَهم إلى الهلاك ، ولم تسلك بهم مناط النجاة والهداية . فأنت - إذن - كاذب فى ادعاء سبيل الرشاد ؛ لأنك أضللتَهم ما هديتهم ، وأهلكتهم ما نجَّيتهم .

(١) رها البحر رهواً : سكن فهو راه . فقوله ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا .. (٢٤)﴾ [الدخان] أى : اتركه ساكن الأمواج ليغتروا فينزلوا فيه . أو : كن يا موسى هادئاً مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/٢٧٩] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ (١) وَٱلسَّلْوَىٰ (٢) ﴿٨٠﴾ ﴾

لله عز وجل على بنى إسرائيل مِنَنٌ كثيرة ونِعَم لا تُعَدُّ ، كان مقتضى العبادية التى وصفهم بها ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه] أن يُنَفِّذوا منهج ربهم ، ويذكروا نعمه ذكْراً لا يغيب عن بالهم أبداً ، بحيث كلما تحركتْ نفوسهم إلى مخَالفة ذكروا نعمةً من نعَم الله عليهم ، تذكّروا أنهم غير متطوعين بالإيمان ، إنما يردُّون لله ما عليهم من نِعَم وآلاء .

والحق - تبارك وتعالى - هنا يُذكِّرهم ببعض نعَمه ، ويناديهم بأحبِّ نداء ﴿ يَـٰبَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] وإسرائيل يعنى عبد الله ، عبده المخلص ، كما تقول لصاحبك : يا ابن الرجل الطيب .. الورع ، فالحق يُذكِّرهم بأصلهم الطيب ، وينسبهم إلى نبى من أنبيائه . كأنه يلفت أنظارهم أنه لا يليق بكم المخالفة ، ولا الخروج عن المنهج ، وأنتم سلالة هذا الرجل الصالح .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه] أى : من

---

(١) المنُّ : طَلٌّ ينزل من السماء يشبه العسل كان ينزل على بنى إسرائيل عفواً بلا علاج ، فيصبحون وهو بأفنيتهم فيتناولونه . [لسان العرب - مادة : منن] .

(٢) السلوى : طائر أبيض مثل السُّمانى . [لسان العرب - مادة : سلا] . قال فى القاموس القويم للقرآن الكريم (١/٣٢٦) : « هو السمانى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة ، ويعود ما سلم منه فى أوائل الصيف إلى موطنه فى أوربا وهو طعام جيد ولحمه كالحمام أو هو أشهى ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده » .

فرعون الذى استذلكم ، وذبح أبناءكم ، واستحى[١] نساءكم ويُسخِّرهم في الأعمال دون أجر ، وفعل بكم الأفاعيل ، ثم ﴿وواعدناكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأيْمَنَ .. ﴿٨٠﴾﴾ [طه] لتأخذوا المنهج السليم لحركة الحياة . إذن : خلّصْناكم من أذى ، وواعدناكم لنعمة .

﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ .. ﴿٨٠﴾﴾ [طه] واعد : مفاعلة لا تكون إلا من طرفيْن مثل : شارك وخاصم ، فهل كان الوَعْد من جانبهما معاً : الله عز وجل وبنى إسرائيل ؟ الوَعْد كان من الله تعالى ، لكن لم يقُلْ القرآن : وعدناكم . بل أشرك بنى إسرائيل فى الوعد ، وهذا يُنبِّهنا إلى أنه إذا وعدك إنسان بشيء ووافقتَ ، فكأنك دخلتَ فى الوعد .

وجانب الطور الأيمن : مكان تلقِّى منهج السماء . وهو مكان بعيد فى الصحراء ، لا زرعَ فيه ولا ماء ؛ لذلك يضمن لهم ربُّهم عز وجل ما يُقيتهم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه]

المنّ : سائل أبيض يشبه العسل ، يتساقط مثل قطرات بلورية تشبه الندى على ورق الأشجار ، وفى الصباح يجمعونه كطعام حلو . وهذه النعمة ما زالت موجودة فى العراق مثلاً ، وتقوم عليها صناعة كبيرة هى صناعة المنّ .

والسَّلْوى : طائر يشبه طائر السُّمان .

وهكذا وفَّر لهم الحق - تبارك وتعالى - مُقوِّمات الحياة بهذه المادة السُّكَّرية لذيذة الطعم تجمع بين القشدة مع عسل النحل ، وطائر شهى دون تعب منهم ، ودون مجهود ، بل يرونَه بين أيديهم مُعَدّاً جاهزاً ، وكان المنتظر منهم أن يشكروا نعمة الله عليهم ، لكنهم اعترضوا عليها فقالوا :

---

(١) استحيا النساء : استبقاهن ولم يقتلهن . [لسان العرب - مادة : حيا]